التفسير بالمأثور عند الزمخشري في تفسيره الكشاف

م. د. أحمد عبدالله رحيم

جامعة كركوك/كلية التربية للعلوم الإنسانية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة السلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد النبي العربي الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الهداة المهديين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

وبعد:

فإن علم التفسير الذي هو "كشف معاني القرآن الكريم، وبيان مراد الله –عز وجل– من ألفاظه"[١] من أعظم علوم الإسلام، بل قد يكون هو أعظمها على الإطلاق؛ ذلك لأن طريق كل خير للأمة الإسلامية في الدنيا والآخرة لا يكون إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة، التي روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري بناء على ما أحاط به علم خالقه الحكيم، وبدهيّ أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره، والوقوف على ما حوى من نصح ورشد، والإلمام بمبادئه[٢].

ولأهميته فقد كان رسول الله (ﷺ) هو أول من فسر القرآن الكريم؛ إذا كان من تمام الرسالة النبوية أن يبين رسول الله (ﷺ) لأمته معاني آيات الكتاب الذي أنزل إليه من ربه؛ يقول تعالى: "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"[٣].

وقد تتابع بعد ذلك علماء الصحابة والتابعين على تفسير القرآن الكريم، وأكثر علماء المسلمين عبر العصور من التصنيف في تفسير القرآن الكريم، من أول القرن الثاني للهجرة، وحتى عصرنا الحديث، وقد اختلفت مناهج المفسرين عبر العصور الإسلامية في تفسير القرآن الكريم، وكان لكل مفسر طريقته التي نهجها، ومصادره التي استقى منها تفسير كتاب الله.

ومن أهم مصادر التفسير ما يُعرف عند العلماء باسم (التفسير بالمأثور)[٤]؛ فإنه يعد المصدر الأصيل، والنبع الغزير التي استقى منه المفسرون على مر العصور تفسير آيات كتاب الله المجيد؛ إذ يعد أوثق مصادر التفسير، وأقربها إلى الصحة واليقين.

هذا ويعد تفسير الإمام جار الله الزمخشري المسمى "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل" من أشهر تفاسير القرآن الكريم وأهمها؛ وليس أدل على هذا من كثرة الكتب التي صنفت عليه قديما، والدراسات التي قامت ولا تزال تقوم عليه حديثًا[٥].

وهذه الدراسة تتناول (التفسير بالمأثور) بوصفه أحد المصادر التي اعتمد عليها الإمام الزمخشري في تفسيره الكشاف، وذلك من خلال استخراج بعد نماذج التفسير بالمأثور عنده موافقةً أو مخالفةً، ومناقشة هذه النماذج ومقارنتها بأقوال غيره من المفسرين، والترجيح بينها.

مشكلة الدراسة:

تتناول هذه الدراسة بالبحث والتحليل والمناقشة نماذج من التفسير بالمأثور عند الإمام جار الله الزمخشري في تفسيره المسمى: "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل).

أسباب اختيار الموضوع:

١) الرغبة في خدمة كتاب الله تعالى، وخدمة علم تفسيره الذي هو أعظم علوم الإسلام.
٢) الرغبة في بيان أهمية التفسير بالمأثور، وأنه أقرب مصادر التفسير إلى الصحة واليقين في معرفة مراد الله تعالى.

٣) الرغبة في خدمة أحد أهم وأشهر تفاسير القرآن الكريم –تفسير الكشاف– من خلال مناقشة أحد مصادر التفسير التي اعتمد عليها صاحبه فيه.

أسئلة الدراسة:

١) ما المقصود بالتفسير بالماثور؟
٢) ما هي نماذج موافقة الصواب عند الزمخشري في تفسيره بالمأثور؟
٣) ما هي نماذج مخالفة الصواب عند الزمخشري في تفسيره بالمأثور؟

أهداف الدراسة:

١) بيان المقصود بالتفسير بالماثور.
٢) مناقشة بعض نماذج موافقة الصواب عند الزمخشري في تفسيره بالمأثور.
٣) مناقشة بعض نماذج مخالفة الصواب عند الزمخشري في تفسيره بالمأثور.

منهج البحث:

لقد اقتضت طبيعة هذا البحث من الباحث أن يعتمد فيه على المنهج الوصفي التحليلي المقارن؛ وذلك لبيان تلك النماذج التي الإمام الزمخشري على التفسير بالمأثور، وتحليلها لمعرفة الرأي الراجح فيها، ومقارنتها بتفسيرات غيره من المفسرين.

خطة البحث:

يشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة:

- **أما المقدمة:** ففيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره ومنهج البحث فيه.
- **وأما التمهيد ففيه ثلاثة مطالب:**
  - **المطلب الأول:** تعريف التفسير بالمأثور.
  - **المطلب الثاني:** التعريف بالزمخشري.
  - **المطلب الثالث:** التعريف بتفسير الكشاف.
- **المبحث الأول: تفسير القرآن بالقرآن في كتاب الكشاف، وفيه مطالب:**

- **المطلب الأول:** تعريف تفسير القرآن بالقرآن.
- **المطلب الثاني:** نماذج من موافقة الزمخشري في التفسير القرآني للقرآن.
- **المطلب الثالث:** نماذج من مخالفة الزمخشري في التفسير القرآني للقرآن.

- **المبحث الثاني: تفسير القرآن بالسنة، وفيه مطالب:**

- **المطلب الأول:** تعريف تفسير للقرآن بالسنة.
- **المطلب الثاني:** نماذج من موافقة الزمخشري في التفسير السني للقرآن.
- **المطلب الثالث:** نماذج من مخالفة الزمخشري في التفسير السني للقرآن.

- **الخاتمة:** وفيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

التمهيد

المطلب الأول

تعريف التفسير بالمأثور

أولًا – التفسير بالمأثور لغةً:

إن مصطلح (التفسير بالمأثور) مصطلح مركب من كلمتين، هما: (التفسير) و (المأثور)؛ لذا فمن الجيد ونحن بصدد تعريفه أن بين معنى كل كلمة من الكلمتين على حدة، فنقول:

التَّفْسير في اللغة مصدر قياسي على وزن تفعيل من الفعل الثلاثي المزيد بحرف فَسَّرَ الذي هو على وزن فَعَّل أحد أوزان مزيد الثلاثي بحرف[٦]، وَمُجَرَّدُه فَسَرَ بمعنى أَبَانَ وَشَرَحَ، يقال: فَسَرْتُ الكلمةَ أَفْسِرها –بكسر السين– أي: أبنت معناها وشرحته، ويقال فَسَّرتُ الكلام تفسيرًا. أي: أبنت معناه وشرحته[٧].

وأما المأثور في اللغة فهو اسم مفعول من الفعل الثلاثي أَثَرَ يأْثُر، يقال: أَثَرْتُ الحديثَ آثُره أَثْرًا. أي: رويته؛ فأنا آثِر، والشيء مأثور، أي: مرويّ، ومنه قول الله –سبحانه وتعالى–: "فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ"[٨]، ومنه قول الأعشى: [من بحر السريع]

إِنَّ الَّذِي فِيهِ تَدَارَيْتما بُيِّنَ للسامع والآثِرِ[٩]

فمعنى المأثور: المروي المنقول، ومنه قيل: حديثٌ مأثورٌ، أي ينقلُه خَلَفٌ عن سلفٍ[١٠].

ثانيًا – التفسير بالمأثور اصطلاحًا:

تعددت تعريفات (التفسير بالمأثور) تبعًا للاختلاف في المصادر التي يؤخذ منها (يؤثر عنها) هذا التفسير؛ فعرفه بعضهم بأنه "ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بيانا لمراد الله تعالى من كتابه"[١١]؛ فقد اقتصر في هذا التعريف على ثلاثة أقسام للمأثور، هي: القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكلام الصحابة –رضوان الله عليهم.

وقد توسع بعضهم في تعريف مصطلح (التفسير بالمأثور)؛ بحيث صار يشمل أيضا المنقول عن التابعين –رحمهم الله– أيضًا؛ وذلك لأنهم تلقوا ذلك غالبًا عن الصحابة، كما أنهم كانوا في عصر الاحتجاج اللغوي، فلم تفسد ألسنتهم بالعُجْمة، وكان لهم من الفهم وسلامة المقصد ما لهم[١٢].

ومن الجدير بالذكر هنا أن العلماء قد اختلفوا في أقوال التابعين في التفسير: هل تعد مصدرًا من مصادر التفسير، أو –بمعنى آخر– هل تعد أقوال التابعين حجة في التفسير أم لا تعد؟ على وجهين:

الأول: أن أقوال التابعين في التفسير حجة في تفسير القرآن الكريم، وأنها أحد مصادر التفسير بالمأثور؛ وحجة هذا الرأي –كما سبقت الإشارة– أن التابعين أخذوا هذا التفسير عن التفسير عن الصحابة –رضوان الله عليهم– وهم قد حكوا ذلك بأنفسهم؛ فمن ذلك ما قاله الإمام مجاهد –رحمه الله–: "عرضت المصحفَ على ابن عباس –رَضي الله عنهما– من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عليه عند كل آية منه، وأسأله عنها"[١٣]، وعلى هذا القول عمل أغلب المفسرين[١٤].

الثاني: أن أقوال التابعين في التفسير ليست حجة؛ وحجة أصحاب هذا القول أن التابعين ليسوا معصومين في ذواتهم؛ ولم يتلقوا عن مصدر معصوم؛ فإن الصحابة

ليسوا معصومين وحجية أقوالهم في التفسير سببها –كما سبقت الإشارة– أنهم تلقوها من رسول الله – ﷺ– وفي هذا يقول شعبة بن الحجاج (ت: ١٦٠هـ): "أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير"[١٥]، قال الإمام ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ): "يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك"[١٦]، وإلى ذلك أيضًا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية[١٧]، وقال الإمام الزركشي (ت: ٧٩٤هـ): "وفي الرجوع إلى قول التابعي روايتان عن أحمد واختار ابن عقيل المنع وحكوه عن شعبة"[١٨].

والذي يميل إليه الباحث هو أن أقول التابعين في تفسير القرآن الكريم لها حالان:

- **الأول:** إذا أجمع التابعون على قول ما في تفسير أي آية من القرآن الكريم فإنه لا يجوز الخروج عن قولهم؛ لأنه من قبيل الإجماع المعصوم[١٩]، وقد قال رسول الله – ﷺ–: "**سَأَلْتُ اللهَ –عَزَّ وَجَلَّ– أَنْ لَا يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِيهَا**"[٢٠].
- **الثاني:** إذا كان قول التابعي مخالفًا لقول غيره من التابعين فإنه لا يعد حجة على ذلك المخالف ولا يعد حجة على غيره ممن يأتي بعده[٢١]؛ وذلك لأن القول المخالَف لا يُحتج به، وقد قرر الأصوليون جواز مخالفة الواحد سواء من الصحابة أو ممن جاء بعدهم من التابعين وغيرهم؛ لأن قوله ليس بحجة في ذاته[٢٢].

المطلب الثاني

التعريف بالزمخشري

اسمه ونسبه:

هو الإمام العلامة جار الله محمود بن عمر بن محمد بن عمر أبو القاسم الزَّمَخْشَرِيّ النحوي اللغوي الأديب المفسر المتكلم المعتزلي[٢٣]، ونسبته إلى زمخشر، وهي إحدى قرى خوارزم في بلاد فارس[٢٤].

نشأته وحياته:

ولد الإمام أبو القايم الزمخشري في شهر رجب من عام سبعة وستين وأربعمائة، ثم رحل إلى بغداد في طلب الأدب واللغة قبل سنة خمسمائة من الهجرة، وسمع فيها من أبي الخطاب بن البطر وغيره، ثم توجه إلى الحجاز فحجّ وأقام هناك مدة مجاورا، وعاد إلى خوارزم وأقام بها إلى أن توفي[٢٥].

مصنفاته:

صنف الإمام الزمخشري الكثير من المصنفات في شتى الفنون، ومن هذه المصنفات:

- المفصل في صنعة الإعراب في النحو.
- شرح لامية العرب.
- أساس البلاغة.
- الفائق في غريب الحديث.
- الجبال والأمكنة والمياه.
- مقامات الزمخشري.
- الكشاف، وهو هذا الكتاب الذي يتناوله هذا البحث.

وفاته:

توفي الإمام جار الله الزمخشري ليلة عرفة لسنة ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة في بلده خوارزم.

المطلب الثالث

التعريف بتفسير الكشاف

إن هذا الكتاب يعد بحق قيمة علمية فريدة لم يسبق مؤلفه إليه لما أبان فيه عن وجوه الإعجاز فى غير ما آية من القرآن، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني

وبلاغته، وليس مثل الزمخشرى من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر لغته لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، لا سيما لغة العرب، وأشعارهم والإحاطة بعلوم البلاغة والبيان، والإعراب، والأدب ولقد أضفى هذا النبوغ العلمي والأدبي على تفسير الكشاف ثوبا جميلا لفت إليه أنظار العلماء(٢٦).

ويعتبر هذا التفسير من أشهر وأكبر كتب التفسير بالرأي والاجتهاد، وهو كتاب أثار –وما زال يثير– الاستحسان الجم، والنقد اللاذع إذ إن صاحبه يوصف بوصفين ظاهرين يعلنهما على الملأ ويذكرهما دون خفاء.

أما أحد هذين الوصفين فهو: أنه يتمذهب بمذهب أهل الاعتزال، ويعتز به، وقد بدأ تفسيره منذ الكلمات الأولى على مذهب الاعتزال وسار فيه من أوله إلى آخره واضعا نصب عينيه هذا المذهب، ففسر الآيات التي اختلف فيها بين أهل السنة وأهل الاعتزال على طريقة المعتزلة، وأسرف في ذلك.

أما الوصف الثاني: فهو هذا النوع من بيان إعجاز القرآن في بلاغته وفصاحته، وإيضاح أنه حقيقة من كلام رب العالمين، وليس للبشر إلى مثله من سبيل ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا(٢٧).

وبسبب تلك النزعة الاعتزالية فقد نبه كثير من العلماء إلى أخذ الحيطة والحذر عند المطالعة في تفسيره أو النقل منه، ومن أدل الإدلة على هذا ذلك الكتاب الذي صنفه ابن المنير، وسماه (الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال)، والذي أورد فيه المسائل الاعتزالية التي ذكرها الزمخشري في كشافه(٢٨).

ومما يلاحظ أيضا على تفسير الكشاف أنه قليل الاستشهاد بالحديث الشريف، ويورد أحيانًا الأحاديث الموضوعة، خاصة في فضائل السور، كما يُلاحظ عليه سلامته من القصص الإسرائيلي غالبا، وإذا ذكر بعضه فإنه قد يفنده، كما فعل في قصة داود وسليمان –عليهما السلام(٢٩).

المبحث الأول

المطلب الأول

تعريف تفسير القرآن بالقرآن

إن تفسير القرآن بالقرآن هو أجل الوسائل لمعرفة مراد الله تعالى من آياته الكريمة في كتابه العزيز، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اخْتُصِر من مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر"(٣٠).

والمقصود بـ(تفسير القرآن بالقرآن) هو تفسير بعض آيات القرآن بما ورد في القرآن نفسه؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضًا؛ فالقرآن الكريم يشتمل على المجمل والمبين وعلى المطلق والمقيد، وعلى العامّ والخاصّ، فما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر، وما جاء مطلقا قد يلحقه التقييد في موضع آخر، وما جاء عاما في آية قد يلحقه التخصيص في آية أخرى(٣١).

ومن الأمثلة على ذلك تفسير (المنعم عليهم) في قول الله تعالى: "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ"(٣٢) بقوله تعالى: "وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا"(٣٣)(٣٤).

المطلب الثاني

نماذج من موافقة الزمخشري في التفسير القرآني للقرآن

لقد وافق الإمام الزمخشري جادة الصواب في كثير من النماذج التي المبثوثة في كتابه على تفسير القرآن بالقرآن، ومن نماذج ذلك قوله في تفسير قول الله تعالى: "اهْدِنَا

الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ"[٣٥]: "معنى طلب الهداية –وهم مهتدون– طلب زيادة الهدى بمنح الألطاف، كقوله تعالى: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدًى"[٣٦]"[٣٧].

هذا وقد اختلف المفسرون في معنى طلب الهداية في آية الفاتحة على وجوه:

الأول: أن المراد منه الهداية العامة، وأمر أن ندعو بذلك –وإن كان هو قد فعله لا محالة– ليزيدنا ثوابا بالدعاء، كما أمرنا أن نقول: اللهم صلّ على محمد.

الثاني: أن معناه: وفقنا لطريقة شرعك.

الثالث: أن معناه: احرسنا عن استغواء الغواة واستهواء الشهوات، واعصمنا من الشبهات.

الرابع: أن معناه: زدنا من تلك الهداية، استنجاحا لما وعدت بقولك: "وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَه"[٣٨]، وقولك: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدًى"[٣٩][٤٠]، وهو ما ذهب إليه الزمخشري.

والراجح من هذه الأقوال – من وجهة نظر الباحث– هو ما ذهب إليه الإمام الزمخشري، وذلك للأسباب الآتية:

أولا: أن طلب الهداية من المؤمنين في هذه الآية الكريمة قد جاء بعد قول الله تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ"[٤١] الدال على الواحدانية والاعتراف بإفراد الله تعالى بالعبادة، وهذا هو أصل الهداية وأسها؛ يقول تعالى: "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ"[٤٢]؛ فجعل سبحانه التوحيد وعبادة الله مرادفين للهدى.

ومثل ذلك أيضا ما جاء في قول الله تعالى في حق الفتية أصحاب الكهف: "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى"[٤٣]؛ فالإيمان هو الهدى، وكل خير بعده زيادة في الهدى، وطلب الشيء ممن يملكه معناه الزيادة فيه[٤٤].

ثانيا: أن من هدي القرآن الكريم الحث على الاستزادة من الخير، ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: "وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا"(٤٥).

المطلب الثالث

نماذج من مخالفة الزمخشري في التفسير القرآني للقرآن

يقول جار الله الزمخشري في تفسير قول الله تعالى: "فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"(٤٦): "... ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم: علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال تعالى: "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ"(٤٧)، "ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ"(٤٨)، فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات –وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات– لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزءوا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم؛ ففرحوا به"(٤٩).

يوضح هذا النص أن الزمخشري ذهب إلى أن المراد بـ(العلم) في الآية الكريمة: العلم بأمور الدنيا وحسن تدبيرها والقيام عليها، وكان مصدره في هذا التفسير قول الله تعالى: "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ"(٥٠).

وقد أورد الإمام أبو حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) قول الزمخشري هذا وعقب عليه قائلًا: "وهو توجيه حسن، لكن فيه إكثار وشقشقة"(٥١).

وبالنظر إلى كتب المفسرين نجد أن لهم في المراد بـ(العلم) في هذه الآية الكريمة عدة أوجه هي:

الأول: هو قول الكافرين للرسل: "نَحْنُ أَعْلَمُ مِنْكُمْ لَنْ نُبْعَثَ وَلَنْ نُعَذَّبَ". وهذا قول مجاهد، وإليه ذهب الإمام الطبري (ت: ٣١٠هـ)(٥٢).

الثاني: أن معنى العلم هنا الجهل، وذلك على سبيل التهكم، وهو أحد الوجوه التي ذكرها الإمام الزمخشري، وذكره أيضًا السمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ) في تفسيره[٥٣]، وهو منقول عن السدي (ت: ١٢٧هـ)[٥٤]، وقد اعترض عليه أبو حيان بأنه لا يعبر بالجملة الظاهر كونها مثبتة عن الجملة المنفية إلا في قليل من الكلام[٥٥].

الثالث: أن المقصود من (العلم) علم أهل الكتاب من دياناتهم المحرفة؛ فقد كان من أهل الكتاب الإيمان بما عندهم من الكتاب، وهو على الحقيقة علم لا شك فيه، لكنهم لما كذبوا غيره من الكتب والعلوم وكفروا بها، لم ينفعهم إيمانهم بما عندهم من العلم[٥٦].

الرابع: أن العلم هو علم الرسل، ويكون الضمير في (فرحوا) عائدا إليهم، والمعنى: فرحت الرسل بما عندهم من العلم بنجاتهم وهلاك أعدائهم[٥٧].

هذا والظاهر من عبارة الإمام أبي حيان الأندلسي التي عقب بها على كلام الزمخشري – من وجهة نظر الباحث– أن الإمام الزمخشري قد توسع في الربط بين الآيتين وأكثر من الاستنباط وبناء الأولى على الثانية؛ فالشقشقة – بكسر الشين الأولى والثانية وتسكين القاف الأولى وفتح الثانية– تطلق في اللغة على لهاة البعير، وقيل: هو شيء كالرئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج، والجمع الشقاشق، ومنه سمي الخطباء شقاشق، شبهوا المكثار بالبعير الكثير الهدر[٥٨].

والراجح –من وجهة نظر الباحث– أن كلام الإمام الزمخشري وتفريعاته في تفسير المراد من (العلم) المبنية على قول الله تعالى: "يَعْلَمُونَ ظاهِرًا مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ"[٥٩] فيها بالفعل جانب من الإكثار أو المبالغة في التفريع –كما هو رأي الإمام أبي حيان– وذلك لسببين:

الأول: أن لفظ (ظاهر الحياة الدنيا) لا يعيني الشهوات والملذات كما ذهب الإمام الزمخشري، بل يعني: ما بدا لهم من معاشهم وحرثهم، كما هو رأي معظم المفسرين[٦٠].

الثاني: أن الشرع الشريف لم يأمر بصد الدنيا والابتعاد عن جميع الشهوات والملذات –كما ذهب الزمخشري– بل جاء الشرع الشريف بتنظيم هذه الأشياء، وحث الإنسان على الاستفادة منها بما لا يضره في دينه وعلاقته بربه سبحانه وتعالى، وفي القرآن الكرم شواهد كثيرة على هذا المعنى؛ فمن ذلك قوله تعالى: "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"(٦١)، وقوله سبحانه: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"(٦٢).

كما جاءت كثير من الأحاديث النبوية تؤكد هذا المعنى، كقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "**لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار**"(٦٣).

المبحث الثاني

تفسير القرآن بالسنة، وفيه مطالب

المطلب الأول

تعريف تفسير للقرآن بالسنة

تمثل السنة النبوية المشرفة ثاني مصادر التشريع الإسلامي عموما وتفسير القرآن على وجه الخصوص؛ يقول تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ"(٦٤)، ويقول رسول الله (ﷺ): "**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ**".

والمقصود بـ(تفسير القرآن بالسنة) أن يُنظر في السّنن الثّابتة المنقولة عن النبي –ﷺ– في معنى الآية، فالنّبيّ –ﷺ– هو المبيّن للقرآن، كما قال تعالى: "وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ

الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"[٦٥]، وبيانه –ﷺ– وحي معصوم لا يساويه بيان غيره من البشر مهما بلغ علمه، كما قال تعالى: "ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى (٢) وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى"[٦٦]؛ فالسّنّة تفسّر مجمل القرآن، وتخصّص عامّه، وتقيّد مطلقه، وتبيّن ناسخه ومنسوخه[٦٧].

ومن الأمثلة على ذلك تفسير (السبع المثاني) في قوله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ"[٦٨] بأنها: سورة الفاتحة اعتمادا على قوله (ﷺ): "الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ" **هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ**"[٦٩].

المطلب الثاني: نماذج من موافقة الزمخشري في التفسير السني للقرآن

يقول الإمام الزمخشري في تفسير قول الله تعالى: "وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً"[٧٠]: "والقول السديد من الأوصياء: أن لا يؤذوا اليتامى ويكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب، ويدعوهم بيا بنيّ ويا ولدي، ومن الجالسين إلى المريض أن يقولوا له إذا أراد الوصية: لا تسرف في وصيتك فتجحف بأولادك، مثل قول رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لسعد: "**إنك أن تترك ولدك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس**"[٧١]"[٧٢].

وهذا الذي ذكره الإمام الزمخشري في تفسير هذه الآية يكاد يكون مجمعا عليه بين المفسرين في هذه الآية الكريمة؛ يقول الإمام محمد بن جرير الطبري في المراد بالقول السديد في هذه الآية: "الرجل يحضره الموت، فيحضره القوم عند الوصية، فلا ينبغي لهم أن يقولوا له: أوص بمالك كله وقدم لنفسك، فإن الله سيرزق عيالك، ولا يتركوه يوصي بماله كله"[٧٣].

وروي عن ابن عباس –رضي الله عنه– أنه قال: "إذا حضر الرجل عند الوصية فليس ينبغي أن يقال: أوص بمالك فإن الله رازق ولدك، ولكن يقال له: قدم لنفسك، واترك لولدك، فذلك القول السديد، كأن الذي يأمر بهذا يخاف على نفسه العيلة"[٧٤].

وفي موضع آخر يقول الزمخشري في تفسير قول الله تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا"[٧٥]: "... أو واجتمعوا على التمسك بعهده إلى عباده وهو الإيمان والطاعة أو بكتابه لقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: "**القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الردّ، من قال به صدق ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم**"[٧٦]"[٧٧].

وقد اختلف المفسرون في المراد بـ(حبل الله) على وجوه، أهمها اثنان:

الأول: أن المراد بـ(حبل الله) هو: عهد الله وأمره، ووهو قول قتادة، وإليه ذهب أبو محمد التستري (ت: ٢٨٣هـ)، وابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ)[٧٨].

الثاني: أن المراد من (حبل الله) هو كتابه، وإليه ذهب الإمام ابن جرير الطبري، والإمام القرطبي، وغيرهما[٧٩].

والراجح –من وجهة نظر الباحث– هو القول الثاني، وهو مذهب الإمام الزمخشري.

المطلب الثالث

نماذج من مخالفة الزمخشري في التفسير السني للقرآن

من النماذج على مخالفة الزمخشري في تفسير القرآن الكريم بالسنة قوله في تفسير قول الله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[٨٠]: "ويجوز أن لا يكون (بالغيب) صلة للإيمان، وأن يكون في موضع الحال، أي: يؤمنون غائبين عن المؤمَنِ به، وحقيقته: ملتبسين بالغيب، كقوله: "الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ"[٨١]، "لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ"[٨٢]، ويعضده ما روي: "أن أصحاب عبد الله ذكروا أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وإيمانهم، فقال ابن مسعود: إنّ أمر محمد كان بينًا لمن رآه[٨٣]"[٨٤].

هذا وقت اختلف المفسرون في المراد من (الغيب) في الآية الكريمة على أقوال، أشهرهما قولان:

الأول: أن المراد بـ(الغيب) هو نسبة القرآن الكريم إلى الله تعالى، وأن الله واحد لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وإليه ذهب جمهور المفسرين[٨٥].

الثاني: أنهم يؤمنون بوجود الله في حالة كونه غائبا عنهم، وهم غائبون عنه؛ فلم يطلبوا منه ما طلبه الأُمم السالفة[٨٦]، من أنبيائهم؛ كقول بني إسرائيل لموسى: "لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً"[٨٧]؛ وعليه يكون المراد بالغيب هو الله –جل وعلا– وهذا هو ظاهر كلام الزمخشري، معضدا إياه بالحديث السابق ذكره.

والراجح –من وجهة نظر الباحث– هو القول الأول؛ وذلك لثلاثة أسباب:

الأول: أنه لا حجة له في الحديث الذي ذكر، لأن (أمر محمد) المذكور في الحديث ليس مقصودًا به ذات الله تعالى، بل المقصود به دينه وكتابه، بدليل مجيئه في أحاديث أخرى بهذا المعنى، منها قوله (ﷺ): "**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**"[٨٨]، وقوله –ﷺ–: "**وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله**"[٨٩].

الثاني: أن الحديث الذي استدل به الإمام الزمحشري ليس معناه أنهم كانوا غائبين عن المؤمَنِ به غيابا كليا؛ فلا يخفى أن الصحابة كانوا مؤمنين بالغيب، لكن باعتبار بعض المؤمن به مع مشاهدة بعضه[٩٠].

الثالث: أن استشهاد الزمخشري بهذا الحديث يسنلزم المساواة بين الصحابة وبين جميع المسلمين بعدهم؛ إذ إن الجميع غائب عن المؤمن به، وقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة على بيان فضل الصحابة وتقدمهم على من جاء بعدهم.

الخاتمة

أولا – النتائج:

١) تفسير الكشاف للإمام الزمخشري إحدى أهم تفسيرات الرأي والاجتهاد؛ ومن ثم فهو قليل الاستعانة بمصادر التفسير بالمأثور.

٢) لقد كانت استعانة الإمام الزمحشري بالقرآن الكريم في تفسير كتاب الله أكثر من استعانته بالسنة النبوية المطهرة.

٣) لقد كانت استعانة انلإمام الزمخشري بالقرآن الكريم في التفسير مبنية على مراعاة ظاهر الألفاظ.

ثانيا – التوصيات:

١) ضرورة دراسة المصادر التي اعتمد عليها المفسرون في تفسيراتهم.

٢) ضرورة الإشارة إلى وجوب الاعتماد على التفسير بالمأثور؛ لأنه أوثق من التفسير بالرأي والاجتهاد.

قائمة المصادر والمراجع

١. الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة – بيروت.
٢. الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، مكتبة السنة – القاهرة، ط٤.
٣. البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، دار الكتبي، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
٤. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠هـ.
٥. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – مصر، ط١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
٦. تاريخ الإسلام، للذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
٧. تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٨. تفسير ابن فورك، دراسة وتحقيق: علال عبد القادر بندويش، جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
٩. تفسير التستري، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دارالكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.
١٠. تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب – جامعة طنطا، ١٤٢٠هـا ١٩٩٩م.
١١. تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق: حسين بن عكاشة – محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة – مصر، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
١٢. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٣. تفسير مجاهد، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة – مصر، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
١٤. تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.
١٥. التفسير والمفسرون لمحمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة – القاهرة.
١٦. التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة – القاهرة.
١٧. تفسير يحيى بن سلام، تحقيق: هند شلبي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م
١٨. تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م
١٩. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
٢٠. جمهرة اللغة، أبو بكر ابن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
٢١. الحديث في علوم القرآن، لحسن محمد أيوب، دار السلام – الإسكندرية، ط٢، ١٤٢٥هـا ٢٠٠٤م.
٢٢. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم – دمشق.
٢٣. ديوان الأعشى، دار صادر – بيروت، ٢٠٠٨م.
٢٤. شذا العرف في فن الصرف، أحمد المحلاوي، تحقيق: نصر الله عبد الرحمن نصر الله، مكتبة الرشد – الرياض.
٢٥. شرح (مقدمة التفسير) لابن تيمية، محمد بن صالح العثيمين، إعداد وتقديم: عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار، دار الوطن – الرياض، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٢٦. شرح المفصل للزمخشري، أبو البقاء يعيش بن يعيش، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٧. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٢٨. طبقات المفسرين لجلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة – وهبة – القاهرة، ط١، ١٣٩٦هـ.
٢٩. طبقات المفسرين، شمس الدين الداوودي، دار الكتب العلمية – بيروت.
٣٠. غريب القرآن لابن قتيبة، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣٩٨هـا ١٩٧٨م.
٣١. فتح القدير للشوكاني، دار ابن كثير – دمشق، ط١، ١٤١٤هـ.
٣٢. فصول في أصول التفسير، مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤٢٣هـ.
٣٣. الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله الدهلوي، عَرَّبَه من الفارسية: سلمان الحسيني النَّدوي، دار الصحوة – القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
٣٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٣٥. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق الثعلبي، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
٣٦. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
٣٧. مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
٣٨. مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، جمال الدين الكجراتي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط٣، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
٣٩. مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، دار البيان العربي.
٤٠. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاء، لابن شمائل القطيعي، دار الجسل – بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
٤١. معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر – بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

٤٢. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
٤٣. مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع – المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٧هـ.
٤٤. مقاييس اللغة، أبو الحسين ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر – بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٤٥. مقدمة في أصول التفسير، أبو العباس ابن تيمية، دار مكتبة الحياة – بيروت، لبنان، ١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م.
٤٦. مناهج المفسرين، منيع عبد الحليم محمود، دار الكتاب المصري – القاهرة، ١٤٢١هـا ٢٠٠٠م.
٤٧. مناهل العرفان في علوم القرآن؛ محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر، ط٣.
٤٨. الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٤٩. النكت والعيون، الماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت.
٥٠. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
٥١. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

الهوامش:

(١) ينظر: التفسير والمفسرون لمحمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة – القاهرة، (١\ ١١).

(٢) ينظر: الحديث في علوم القرآن، لحسن محمد أيوب، دار السلام – الإسكندرية، ط٢، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، (ص١٣٢).

(٣) سورة النحل، الآية: (٤٤).

(٤) اعترض بعض الباحثين على هذا المصطلح لعدة أسباب نلخصها فيما يلي:

أن من جعل التفسيرَ بالمأثور يشمل هذه الأنواع الأربعة: (تفسير القرآن بالقرآن – تفسير القرآن بالسنة – تفسير القرآن بأقوال الصحابة – تفسير القرآن بأقوال التابعين) الآتي بيانها لم يبين سبب تحديد المأثورِ بها، وهذا التحديد اجتهادٌ، وهو قابل للأخذ والردِّ، كما هو الحال في غيره من المصطلحات العلميَّةِ غير الشرعيَّةِ.

أن المعروف من لفظة (مأثور): ما أُثِرَ عن السابقين، وتحديد زمنٍ معيَّنٍ إنما هو اصطلاحٌ، وإذا كان ذلك كذلك؛ فكيف يكون تفسير القرآن بالقرآن مأثورًا، وأنت ترى الله يَمُنُّ عليك بتفسير آيةٍ بآيةٍ، فعن من أثرته؟!

أن هذا المصطلح في الأصل يعود إلى ما ذكره في رسالته «مقدمة في أصول التفسير» مما أسماه (طرق التفسير)، وقد تم تحوير هذا المصطلح عند المحدثين إلى (التفسير بالمأثور) وهذا التحوير –في نظره– يفتقر إلى التحرير الجيد. ينظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع – المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٧هـ، (ص١٩).

هذا ويمكن القول الرد على هذا الكلام من خلال النقاط الآتية:

أن تحديد مصادر التفسير بالمأثور بالمصادر الأربعة ليس أمرا اجتهاديا يعود إلى الرأي؛ بل جاء من خلال استقراء النصوص والاعتماد على مفهومها؛ فأما القرآن والسنة فلا خلاف في ضرورة الالتزام بهما إذا جاء فيهما شيء من التفسير؛ لأنهما حجة على أهل الإسلام جميعهم؛ وأما أقوال الصحابة فلأنهم شهدوا تطبيق آيات القرآن الكريم عمليا من خلال حياة رسول الله –ﷺ– كما كانوا معاصرين لنزول الوحي وعارفين بمناسبة نزول كل آية من آياته الكريمة؛ فكلامهم في التفسير أقرب إلى الصواب من كلام غيرهم، وأما أقوال التابعين فلأنهم قد أخذوا ذلك من الصحابة – رضوان الله عليهم– كما أنهم كانوا موجودين ي عصر الاحتجاج اللغوي، وكانوا أبعد عن الفلسفات والطرق الكلامية التي استخدمها كثير ممن جاء بعدهم في تفسير القرآن الكريم؛ فكانوا أقرب إلى العلم والفطرة وسلامة القصد ممن جاء بعدهم.

إن التفسير بالمأثور لا يعني عدم الاجتهاد؛ فالقول بأن احتياج تفسير القرآن بالقرآن للاجتهاد يناقض هذا المصطلح أمر ليس في محله؛ لأن المطلوب من المفسر بالمأثور ليس فقط الحفظ والجمع، بل الاجتهاد في فهم هذا المأثور.

القول بأن أصل هذا المصطلح تحوير من المحدثين لما أسماه شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– (طرق التفسير) أمر غير صحيح؛ وذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن هذا المصطلح قد ظهر عند مؤلفين أقدم من شيخ الإسلام ابن تيمية، ومن الأمثلة على ذلك كتاب «المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره» الذي ينسبه أصحاب التراجم للإمام مكي بن أبي طالب الأندلسي المتوفى سنة (٤٣٧هـ)، ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ط١، ١٩٩٤م، (٥/ ٢٧٦)، طبقات المفسرين، شمس الدين الداوودي، دار الكتب العلمية – بيروت، (٢/ ٣٣٢).

الوجه الثاني: أن أشهر الكتب التي استخدمت ظهرت قبل (المحدثين)، كتاب «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للإمام جلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ).

(٥) من أمثلة المصنفات القديمة: حاشية الإمام الطيبي على تفسير الكشاف المعروفة باسم (فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب)، وكتاب (تخريج أحاديث الكشاف) للإمام الزيلعي، ومن أمثلة الدراسات الحديثة: (القراءات القرآنية في تفسير الكشاف) للباحث نضال محمود الفراية، و(البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف) للدكتور محمد حسنين أبو موسى، وغير ذلك الكثير.

(٦) أوزان الثلاثي المزيد بحرف هي: (أَفْعَلَ – فَاعَلَ – فَعَّلَ)، ينظر: شرح المفصل للزمخشري، أبو البقاء يعيش بن يعيش، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، (٤/ ٤٣٣)، شذا العرف في فن الصرف، أحمد المحلاوي، تحقيق: نصر الله عبد الرحمن نصر الله، مكتبة الرشد – الرياض، (ص٢٧).

(٧) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، (٢/ ٧٨١)، مقاييس اللغة، أبو الحسين ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر – بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، (٤/ ٥٠٤)، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، جمال الدين الكجراتي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط٣، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، (٤/ ١٣٨).

(٨) سورة المدثر، الآية: (٢٤).

(٩) ديوان الأعشى، دار صادر – بيروت، ٢٠٠٨م، (ص٩٣)، والرواية في الصحاح، (٢/ ٥٧٥): (تماريتما).

(١٠) ينظر: جمهرة اللغة، أبو بكر ابن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، ط١، ١٩٨٧م، (٢/ ١٠٣٥)، تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م، (١٥/ ٨٦)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (٢/ ٥٧٥).

(١١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن؛ محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر، ط٣، (٢/ ١٢).

(١٢) ينظر: مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، (ص٣٥٨)، فصول في أصول التفسير، مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤٢٣هـ، (ص٥١).

(١٣) أخرجه الإمام الطبراني في المعجم الكبير، (١١/ ٧٧)، رقم (١١٠٩٧).

(١٤) ينظر: شرح (مقدمة التفسير) لابن تيمية، محمد بن صالح العثيمين، إعداد وتقديم: عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار، دار الوطن – الرياض، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، (ص١٥٨).

(١٥) ينظر: مقدمة في أصول التفسير، (ص٤٥).

(١٦) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، (١/ ١٠).

(١٧) ينظر: مقدمة في أصول التفسير، (ص٤٦).

(١٨) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – مصر، ط١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، (٢/ ١٥٨).

(١٩) ينظر: تفسير ابن كثير، (١/ ١٠)، مقدمة في أصول التفسير، (ص٤٦).

(٢٠) صحيح: أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (٤٥/ ٢٠٠)، رقم (٢٧٢٢٤)، والإمام الطبراني في المعجم الكبير، (٢/ ٢٨٠)، رقم (٢١٧١)، وقال الأرناؤوط: "صحيح لغيره".

(٢١) ينظر: التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة – القاهرة، (١/ ٩٦).

(٢٢) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة – بيروت، (٤/ ١٩١)، البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، دار الكتبي، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (ص/ ٧٠).

(٢٣) ينظر: تاريخ الإسلام، للذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، (١١\ ٦٩٧).

(٢٤) ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر – بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، (٣\ ١٤٧)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاء، لابن شمائل القطيعي، دار الجسل – بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، (٢\ ٦٦٩).

(٢٥) ينظر: طبقات المفسرين لجلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة – وهبة – القاهرة، ط١، ١٣٩٦هـ، (ص١٢٠).

(٢٦) ينظر: مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، دار البيان العربي، (ص١٤٤).

(٢٧) ينظر: مناهج المفسرين، منيع عبد الحليم محمود، دار الكتاب المصري – القاهرة، ١٤٢١هـ\ ٢٠٠٠م، (ص١٠٦).

(٢٨) ينظر: دراسات في علوم القرآن الكريم لفهد الرومي، (ص١٦٣).

(٢٩) ينظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، (ص١٣١).

(٣٠) مقدمة في أصول التفسير، (ص٣٩).

(٣١) ينظر: الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله الدهلوي، عَرَّبَه من الفارسية: سلمان الحسيني النَّدوي، دار الصحوة – القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، (ص١٨٠).

(٣٢) سورة الفاتحة، الآية: (٧).

(٣٣) سورة النساء، الآية: (٦٩).

(٣٤) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، (١/ ١٧٨).

(٣٥) سورة الفاتحة، الآية: (٦).

(٣٦) سورة محمد، الآية: (١٧).

(٣٧) الكشاف للزمخشري، (١\ ٦٢).

(٣٨) سورة التغابن، الآية: (١١).

(٣٩) سورة محمد، الآية: (١٧).

(٤٠) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب – جامعة طنطا، ١٤٢٠هـ\ ١٩٩٩م، (١\ ٦٢)، .

(٤١) سورة الفاتحة، الآية: (٥).

(٤٢) سورة النحل، الآية: (٣٦).

(٤٣) سورة الكهف، الآية: (١٣).

(٤٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني، دار ابن كثير – دمشق، ط١، ١٤١٤هـ، (١١ ٢٨).
(٤٥) سورة طه، الآية: (١١٤).
(٤٦) سورة غافر، الآية: (٨٣).
(٤٧) سورة الروم، الآية: (٧).
(٤٨) سورة النجم، الآية: (٣٠).
(٤٩) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، (٤/ ١٨٢).
(٥٠) سورة الروم، الآية: (٧).
(٥١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠هـ، (٩/ ٢٧٧).
(٥٢) ينظر: تفسير مجاهد، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة – مصر، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، (ص٥٨٤)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٢١/ ٤٢٢).
(٥٣) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم – دمشق، (٩/ ٥٠٣).
(٥٤) ينظر: جامع البيان، (٢١/ ٤٢٢)، تفسير ابن فورك، دراسة وتحقيق: علال عبد القادر بندويش، جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، (٢/ ٣٧٤).
(٥٥) ينظر: البحر المحيط، (٢/ ٧٧).
(٥٦) ينظر: تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، (٦/ ٥٦).
(٥٧) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق الثعلبي، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، (٨/ ٢٨٣)، النكت والعيون، الماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت، (٥/ ١٦٥).
(٥٨) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، (١٠/ ١٨٥)، تاج العروس، (٢٥/ ٥٢١).
(٥٩) سورة الروم، الآية: (٧).

(٦٠) ينظر: تفسير يحيى بن سلام،تحقيق: هند شلبي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، (٢/ ٦٤٥)، جامع البيان في تأويل القرآن، (٢٠/ ٧٥)، تأويلات أهل السنة، (٨/ ٢٥٢)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، (٧/ ٢٩٥).

(٦١) سورة القصص، الآية: (٧٧).

(٦٢) سورة الأعراف، الآيتان: (٣٢، ٣٣).

(٦٣) أخرجه الإمام أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الحسد، (٤/ ٢٧٦)، رقم (٤٩٠٤).

(٦٤) سورة النساء، الآية: (٥٩).

(٦٥) سورة النحل، الآية: (٤٤).

(٦٦) سورة النجم، الآيات: (٢ – ٤).

(٦٧) ينظر: المقدمات الأساسية في علوم القرآن، (ص٣٠٠).

(٦٨) سورة الحجر، الآية: (٨٧).

(٦٩) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيمَ} [الحجر: ٨٧]، (٦/ ٨١)، رقم (٤٧٠٣).

(٧٠) سورة النساء، الآية: (٩).

(٧١) أخرجه الإمام االبخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي –ﷺ– سعد ابن خولة، (١٢\ ٨١)، رقم (١٢٩٥)، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، (١٣\ ١٢٥٠)، رقم (١٦٢٨).

(٧٢) الكشاف، (١١\ ٤٧٨).

(٧٣) جامع البيان للطبري، (١٦\ ٤٤٨).

(٧٤) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم، (١٣\ ٨٧٨).

(٧٥) سورة آل عمران، الآية: (١٠٣).

(٧٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده، (١١\ ٢٥١)، رقم (٣٧٦)، والدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن، (١٤\ ٢٠٨٩)، رقم (٣٣٥٨).

(٧٧) الكشاف للزمخشري، (١١\ ٣٩٤).

(٧٨) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣٩٨هـ\ ١٩٧٨م، (١١\ ١٠٨)، تفسير التستري، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دارالكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، (١١\ ٤٧).

(٧٩) ينظر: جامع البيان للقرطبي، (١٧\ ٧٠)، الجامع لأحكام القرآن، (١٤\ ١٦٤).

(٨٠) سورة البقرة، الآية: (٣).

(٨١) سورة الأنبياء، الآية: (٤٩).

(٨٢) سورة يوسف، الآية: (٥٢).

(٨٣) أخرجه ابن منده في الإيمان، (١\ ٣٧١)، رقم (٢٠٩)، والحاكم في المستدرك، (٢\ ٢٨٦)، رقم (٣٠٣٣)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه".

(٨٤) الكشاف، (١\ ٣٩).

(٨٥) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، (١\ ٨١)، تفسير التستري، (١\ ٢٦)، جامع البيان للطبري، (١\ ٢٣٦).

(٨٦) ينظر: تأويلات أهل السنة، (١\ ٣٧٣)، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ\ ٢٠٠٨م، (١\ ١٣١).

(٨٧) سورة البقرة، الآية: (٥٥).

(٨٨) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، (١٤\ ٣٠٨)، رقم (٢٦١٦)، والإمام النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، سورة السجدة، (١١٠\ ٢١٤)، رقم (١١٣٣٠).

(٨٩) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي –ﷺ– وأصحابه من المشركين بمكة، (٥\ ٤٥)، رقم (٣٨٥٢).

(٩٠) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، نور الدين الملا الهروي القاري، دار الفكر – بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ\ ٢٠٠٠٢م، (١٩٠\ ٤٠٥٠).